عن "دور الدين في الحياة العربية"

صادق سليمان

"دور الدين في الحياة العربية" موضوع نراه يراود الحوار الفكري العربي طوال هذا القرن. في صلب هذا الموضوع سؤال لايزال يتردد: ترى هل لايزال بامكان الدين – وبالدين هنا نعني الاسلام تحديدا – ترى هل لايزال بامكان الاسلام أن يعطي توجيها رشيدا للحياة القومية للعرب؟ فاذا زعمنا الايجاب في الرد، فكيف نلائم معه تراجع – بل وتخلف – الأمة العربية – وهي الأمة الرائدة في الاسلام – تخلفها على مدى القرنين الماضيين على الأخص – وتلك فترة حققت فيها أمم أخرى غير مسلمة انجازات عظمى في المعرفة والانتاج والتنظيم... ايضا، كيف نفسر اخفاق الأمة العربية – وهي أمة سباقة في التعرف على مبدأ الشورى في الحياة العامة، يوم لم يكن مبدأ الشورى في الخبرة البشرية شيئا يذكر... كيف نفسر اخفاقها في بناء وتطوير مناهج ومؤسسات دستورية قويمة ترسو عليها وتنتظم بها حياة قومية رشيدة؟

هذا التساؤل– على نحو أو آخر – ظل ولا يزال يشغل الفكر العربي، ويشغله بالحاح، كما نلاحظ من كثير من الكتابات والحوارات الحديثة والمعاصرة (بما في ذلك بعض حواراتنا هنا في مركز الحوار العربي). وهي كتابات وحوارات تبحث في العلاقة بين الدين والدولة، الدين والمجتمع، الدين والديمقراطية، وهكذا.

كخلفية تاريخية أسوقها – وبخط عريض جدا – كتمهيد لما أود أن استلخصه من هذا العرض: أرى أن القرون التسعة الأولى لمسيرة الاسلام، وربما حتى الخروج النهائي من الأندلس (هـ ٨٩٨)، بالرغم من كثير مما اعترى المسيرة خلالها من سلبيات، واصل الاسلام تقدمه الحضاري – والذي تمثل في أحد أهم جوانبه وأكثرها اشراقا، في تطوير العلوم الطبيعية والرياضية، والفكر الفلسفي. كما حافظ الاسلام على قدرة ذاتية على الصمود في وجه كثير من تحديات واجهته، خارجية وداخلية. كان من ذلك أن جابه المسلمون الصليبيين مرات عديدة على مدى قرنين من الزمن حتى هزموهم واجلوهم عن الوطن آخر الآمر. كما تلقوا الهجمة المنغولية الشرسة، فتحملوها، واستوعبوها، واستوعبوا المغيرين المنغول بينهم في حظيرة الاسلام. ثم تلت قرون ثلاثة تراوحت فيها حظوظ المسلمين بين تقدم وتراجع. ولكن في الأعم، صمد الاسلام أمام كل تحد كبير واجهه، أو عوض عنه بفتح جديد... وظل المسلمون – والعرب بينهم كأمة رائدة – ظلوا على اطمئنانهم انه – كيفما اتفق، ومهما تكالب عليهم الأعداء – فسيبقون مؤيدين ابدا بنصر مؤزر موعود!

في ركونهم إلى هذا الاعتقاد – أو ان شئت الاتكال – لم يقلق المسلمون كثيرا، والعرب بينهم، حتى بعد أن بدأ الاختراق الاستعماري الأوروبي لبحارهم وأراضيهم وأخذ يتسع (١٥٥٠– ١٨٠٠) حتى اذا داهم نابليون مصر عام ١٧٩٨، وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام غزاة من الغرب، لم يأتوا بتفوق عسكري فحسب، بل اتوا أيضا بتفوق اداري وتنظيمي ومعرفي. ولأول مرة رأووا – على مضض وعن كثب – كيف أن قانونا صاغه اجتهاد بشري بدأ ينافس شريعة وحي تعطل فيها الاجتهاد البشري لقرون طوال!

هنالك نلاحظ بوادر افاقة – أو شبه افاقة – بعد غفلة طالت وتغاض عما استشرى في المجتمعات الاسلامية من فساد سياسي/اداري وتخلف معرفي، ولدا معا في أمم الاسلام عجزا أغرى بغزوها الغرب. أما العرب فبعد قرون من تعطل

دورهم القيادي في الاسلام، فقد بدأوا يتململون ازاء الزحف الأوروبي المتسارع على اوطانهم في المشرق العربي والمغرب، ويتساءلون (وكأنهم يتساءلون عن النبأ العظيم): ترى كيف تعثر الاسلام، واين وقع المسلمون – والعرب بينهم – في خطأ؟

الحوار الكبير الذي استتبع هذا التساؤل منذ الربع الأخير من القرن الماضي لايزال جارياً، ينتظر نوعاً من مستقر. فمع أن الاستعمار قد انحسر، الا أن التبعية لاتزال. فحيثما نظرت، ترى علوم الغرب وتقانته وخبراته المتعددة هي – وليس الاسلام – لا فكره ولا انتاجه – هي التي تسير الحياة العربية في شتى الحقول. في نمط المعيشة، في العمل، في التعليم، في الطب، في التجارة، في المال والاقتصاد، في الري والزراعة، في المواصلات، في السلاح والعتاد... سَمِّ ما شئت، حينما نظرت، ترى الابتكارات الغربية، من منتجات تقنية ونظم معرفية ومهنية، هي التي تسير وتسود،... وترى من وراء ذلك، تفوقاً غربياً – عسكرياً واقتصادياً – يهيمن على القرار العربي، فيصرفه عن تصحيح عطب الحاضر وتقويم المسار إلى مستقبل رشيد.

ولكي لا أُفهم على ما لا أعنيه، أقول: أنني لا أرى ضيراً على الاطلاق في أن تقتبس الأمة العربية من معارف هذا العصر ومنجزاته، بل وأن تكثف وتسارع في عملية الاقتباس – من الغرب كان أو من أممٍ تقدمت في الشرق. فنحن، بعد قرون من تخلف مركب، في عالم اليوم، في موقع مقلد لا مبتكر، متلقٍ لا مصدر لعطاء. لكن الذي يؤذي ويضير، بل ينهك ويهلك، هو أن تُقطع علينا امكانية تجاوز التخلف الذي نعيشه، ويُقضى فينا على الثقة بالنفس في القدرة على النهوض، ويُجهض لنا طموح مشروع إلى اصلاح ما فسد، واعادة بناء ما تقوض في حياتنا العربية... على قواعد حضارية ومدارك معرفية سبقت في وعي هذه الأمة عبر خبرة تاريخية ثرة، مشهودة في عطائها الحضاري للأمم في الشرق والغرب.

إن العطب في الحياة العربية فادح، ومركب، ومربك: نحن أمة واحدة ووطن مجزأ. نحن ثقافة واحدة وجماعات متفرقة. نحن حضارة قامت على مبادئ وقيم عبر عنها رسول الاسلام بمكارم الأخلاق (جئتُ لأتمم مكارم الأخلاق)... ولكن حياتنا في اختناق حضاري تحت وطأة أنظمة حكم هي في تكوينها وفي ممارساتها معاً لا تحتكم إلى مبادئ وقيم ولا تحتكم إلى مكارم أخلاق. نحن أمة حُثت على العلم والحكمة، فلا العلم نعتمد، ولا بالحكمة عدنا نبتصر في تصريف الأمور.

كيف نخرج من هذا الضياع؟ بماذا نصحح وعلى ماذا نبني من جديد؟ واذا كان الاسلام لم يُجدنا نفعاً منذ قرون – وهذا الذي تساءلنا حوله في مستهل هذا العرض – أفليس الأجدى أن ننصرف عن الاسلام إلى النظر في أسباب التقدم والانجاز لدى أمم أخرى، فنكتفي بالاقتباس والتقليد؟

على ذلك أجيب: ليس صحيحاً أن الاسلام لم يجدنا نفعاً. لقد تعهدنا الاسلام خيراً، لكننا لم نتثبت عند مبادئه وقيمه، كما تثبتنا، في الغالب، عند أحكامه وشعائره. نحن الذين لم نُجد أنفسنا نفعاً بالتخاذل والارتكاس. ولو كنا على دين آخر، أو على غير دين، لوقعنا فيما وقعنا فيه بذات الأسباب... اذ الأسباب – حيث هي انسانية – أي حيث هي تمت لتصرف الانسان نفسه – لا تختلف في جوهرها حيثما نجد تحققا لتقدم أو وقوعاً في تخلف. بما يصلح به أو يفسد شأن

فرد، أو مجتمع، أو أمة، يصلح به أو يفسد شأن كل الأفراد والمجتمعات والأمم. تلك هي سنة الحياة التي اختبرتها البشرية، وينبئ عنها القرآن الكريم، بصرف النظر عن التمايز الثقافي أو الديني بين الشعوب. لقد تخلفت الأمة العربية على مدى القرون الأخيرة، ليس لأن الاسلام – وهو معينها الحضاري – لم يشخص لها ويعرفها بأسباب التقدم والازدهار... لكنها تخلفت لانها عطلت أخذها بتلكم الأسباب.

عندما أنظر في التجربة العربية في الاسلام، ومع الاسلام، أرى أن أهم عجزين وقعا في الحياة العربية هما في أمرين أصلهما الاسلام وأكدهما كأساسين لا تقوم حضارة على غيرهما، ولا تتقدم أو تتواصل ان هما تراجعا لدى أية أمة من الأمم. الأساس الأول هو العلم: الذي – في المنظور القرآني – يتلو الخلق مباشرة لتمكين الانسان من الحفاظ على الذات والنماء في الادراك. بالعلم تتمايز الأمم كما يتمايز الأفراد، لما للعالم من جدارة التمييز بين الخطأ والصواب، ولما له من قدرة على نفع الناس. بالعلم يقام البرهان وتساق الحجة، فلا اعتداد برأي أو فهم لا مصداقية له في علم محقق. وانك اذ تقرأ في القرآن الكريم:

اقرأ باسم ربك الذي خلق
خلق الانسان من علق
اقرأ وربك الأكرم
الذي علم بالقلم
علم الانسان ما لم يعلم...

... تجد كيف يردف العلم الخلق في فهم الاسلام... فلو خلق الانسان ولم تخلق فيه قابلية التعلم لهلك... ولو وجدت فيه قابلية التعلم وحجبت عنه فرصة التعلم لتضاءل... كذا تتضاءل الأمم التي تقصر في طلب العلم، كما يتضاءل الأفراد... وهذا ما حصل للأمة العربية يوم أن انصرفت عن طلب العلم إلى تفقه في الدين بدون علم يرشد لها الاجتهاد.

الأساس الآخر الذي أصل له الاسلام في البناء الحضاري، هو الأخلاق. الأخلاق، بهذا المعنى، أعم من مجرد معشر حسن. انها في الجوهر منظومة مبادئ وقيم ترشد الاجتهاد البشري لتحقيق حياة طيبة في مناخ حضاري صائن للانسان ومنمي له فردا وجماعة. كمبادئ، الاسلام يقرراقامة العدل، وتحقيق المساواة، وضمان كرامة الانسان، وترسيخ الشورى نظاما للحياة العامة. وانك لتكاد لا تجد حقا من حقوق الانسان، أو واجبا من واجباته لا يتصل أساسا بأحد أو أكثر من هذه المبادئ الأربعة في الاسلام. كقيم، الاسلام يحث على طلب العلم، واتقان العمل، تعميم الاحسان، وتوسيع التعاون، وصلة الرحم، واتباع المعروف، وقول الصدق، واعمار الأرض، وايجاد اليسر في أرزاق الناس... علما بأن هذه كافة مبادئ وقيم انسانية الجوهر، اذ يميزها، ويقرها، ويسعى لتحقيقها – كالاسلام – الفكر البشري المستنير في كل زمان ومكان. وهنا، اذ يدرك السبب، قد يبطل كثير من عجب: تخلف في العلم، وابتعاد عن مبادئ وقيم في ممارسة الحكم والسياسة، والتصرف في الأموال العامة، وتصريف مصالح الناس... تخلف في علم وابتعاد عن مبادئ وقيم... والأمة في تراجع تاريخي لم يتوقف بعد!

بما عرضت، أرجو أن أكون قد أوصلت لكم وضوحا أنني أرى للاسلام دورا في ترشيد الحياة العربية، بل وأنني لا أرى للحياة العربية قياما بالمعنى الحضاري بمعزل عن عطاء الاسلام. ان أية مهمة للاصلاح لا يمكن أن تأتي بدون

انفتاح معرفي وارتكاز اخلاقي. العلم يكشف عن الحاجة إلى الاصلاح، والأخلاق تبرر السعي لتحقيقه. هما معا يعرفان محتوى الاصلاح، يحددان وجهته، يهذبان نهجه، يصححان مساره. بالنسبة للعروبة، الاسلام كان ولايزال معينها الحضاري المؤصل فيها للعلم والأخلاق، والمعرف لها بالمبادئ والقيم: منه تلقى العرب في مسيرتهم التاريخية ما ابتعثهم أمة ذات جدارة بين الأمم، ومنه إلى يومنا هذا، لا تزال الكثرة الكاثرة من العرب – مسلمين وغير مسلمين – تستقي فهمها الحضاري للحياة.

***

أذن، فمدخلنا إلى الاصلاح أراه ابتداءا في خلق وعي جماعي على امتداد الوطن الكبير: وعي على الذات وعمقها الحضاري، وعي على قصور هذا الواقع المتجزء المتخلف معرفيا وديمقراطيا، ووعي على الامكانات المتاحة للأمة العربية لبناء حضاري من جديد. الاسلام كحضارة، مؤهل ان يدلنا إلى مثل هذا المدخل وان يرشدنا في مهمة الاصلاح، ذلك أن أولويات الاسلام هي ذاتها أولويات العروبة في اعادة بناء أمة وسط، موحدة الكيان، قائمة على مبادئ العدل والمساواة وكرامة الانسان والشورى، متنامية ابدا بالعلم والحكمة، ومتخلقة بمكارم الأخلاق. مثل هذه الامة العربية ستكون خير تحقيق لرسالة الاسلام وخير تمثيل لعالميتها عند سائر الامم.

أخيرا، ملاحظات موجزة أحاول أن استدرك بها بعض ما يكون قد فاتني من عرض أو ايضاح:-

<u>اولا</u>: العروبة لدي ثقافة قومية يتمايز بها العربي بين سائر الثقافات في الاسلام وخارج الاسلام. العروبة – بهذا المعنى – أعم وارحب من الانتماء لقطر أو دين أو عرق. العروبة تستوعب كل هذه الخصوصيات: تستثرى بها وتثريها من خلال تفاعل ثقافي. العربي اذن، هو– وهي – من يتشخص بالثقافة العربية اينما تواجد وايا كانت خصوصياته.

<u>ثانيا</u>: الاسلام للعرب دين و–أو– حضارة. من حيث هو دين، الاسلام له خصوصياته العقيدية والشعيرية، كما هي لأي دين. من حيث هو حضارة الاسلام له عالمية المبادئ والقيم. إلى هذه العالمية، يشير القرآن الكريم في نعته الاسلام، بالدين القيم والدين الحنيف.

<u>ثالثا</u>: بصرف النظر عن الكيفية التي فهمت أو لا تزال تفهم بها الشورى في الفهم التقليدي في الاسلام، الفهم الأدق والأوفى للشورى هو ذلك الذي يتفق مع روح الاسلام ويتسق مع معارف العصر وتحقيقات شعوبه: حيث نفهم الشورى نظاما يمكن من اقامة العدل وتحقيق المساواة وصون كرامة الانسان، ذكر وانثى على حد سواء... نظاما يقوم الحكم، يمنع التسلط، يضمن الحقوق، يرفض الفساد، يلغي علاقات التبعية داخلية وخارجية... نظاما ديمقراطيا متكاملا، قوامه، من مستوى القرية إلى مستوى الأمة، مؤسسات منتخبة من المواطنين رجال ونساء على قدم المساواة.

<u>رابعا</u>: المجتمع العربي النموذجي الذي اتطلع إلى تحققه في كل قطر عربي – وليس بالضرورة خلال ما تبقى لي من عمر – هو مجتمع مدني يحكم بدستورية ديمقراطية واضحة تترشد بمبادئ الاسلام وقيمه. كل الاجتهاد والتشريع ضمن هذا المجتمع يتم من خلال مؤسسات دستورية منتخبة، وليس بمراسيم من حكام أو بفتاوى من رجال الدين.

(من ندوة في "مركز الحوار العربي" – الاربعاء ١٩٩٦/٣/١٣)